دور مدرسة التّرجمة بطليطلة في
نقل العلوم العربيّة وبالتّالي في نهضة أوروبا*

د. جمعة شيخة

لقد أصبحت المنافذ الثّلاثة لدخول العلم العربي إلى أروبا : طليطلة، وصقلّيّة، وبلاد الشّام عند اندلاع الحروب الصّليبيّة محلّ عدّة دراسات قصد تقييم الدّور الذي لعبه العرب في نهضة أروبا.

وأغلب هذه الدّراسات ـ حوالي 90.0/0 منها ـ دراسات غربيّة (انظر قائمة المراجع في نهاية هذا البحث). ولم نجد إلاّ عددا قليلا من الدّراسات العربيّة اهتمت بهذا الموضوع، وكأنّ الأمر لا يعنينا، مع أنّ الباحثين الغربيين ـ نتيجة لتعصّب ديني أو عرقي ـ قاموا بمحاولات جادّة لطمس الدور الكبير الذي لعبه العرب في نهضة أروبا من خلال ما تمّ من ترجمات لمؤلفاتهم العلميّة والفلسفية. لكن هذا لا يعني أبدا انعدام البحوث الموضوعيّة لديهم، وخاصّة منذ نهاية القرن الماضي. وهي بحوث صدعت بكلمة الحقّ بعد مشاق البحث وعناء الدّراسة.

ولقد بدا لنا أن هذه الدّراسات التّي كثيرا ما تكرّر بعضها تناولت دراسة أحد مراكز النّقل للعلم العربي وهي مدينة طليطلة بصفة جزئية ومنفصلة، أي منذ تأسيسها إلى نهاية حركة التّرجمة بها، دون اعتبار لما سبقها من حركات فكريّة كانت الممهّد الأساسي لظهور هذه المدرسة في التّرجمة بمدينة طليطلة بالذّات دون غيرها من مدن شبه جزيرة الأندلسيّة. فما هي أهمّ العوامل التي ساعدت على بروز هذا المركز لنقل العلوم العربيّة في عاصمة القوط القديمة؟

الحضارة قديما وحديثا هي صرح مشترك شيّدته الإنسانيّة جمعاء. وقامت كلّ أمّة راقية متطورة بإضافة لبنة جديدة فيه حتى استقام على ماهو عليه اليوم من قوّة وشموخ. لذا ليس من البدع القول ـ في نطاق تلاقح الثقافات وانتقالها ـ أنّ مدينة طليطلة في الأندلس بالغرب هي

(*) بحث ألقي في ندوة «الأندلس : قرون من التقلّبات والعطاءات» التي نظّمتها مكتبة الملك عبد العزيز العامّة بالرّياض من 15-19 جمادى الأولى 1414 هـ الموافق لـ 30 أكتوبر إلى 3 نوفمبر 1993.

وريشة دمشق ثمّ بغداد بالشرق. ذلك أنّه ما إن بلغت العاصمة العبّاسية الأوج في نقل العلوم اليونانية والفارسيّة والهندية وصهرها في بوتقة الفكر العربي الإسلامي في القرن 4 هـ/ 10م حتّى تمهّدت الأرضية السّليمة التي ستقام عليها مدرسة طليطلة لنقل جهود العرب : أخذا وترجمة، فهما وتمحيصا، شرحا وتوضيحا، إبداعا وعطاء. إلى اللغة اللاّتينيّة.

إنّ الارضيّة الأولى التي مهّدت لظهور مدرسة طليطلة كانت عربية محضة. فقد عمل خلفاء بني أمّة وخاصة عبد الرحمان النّاصر والحكم المستنصر في ق 4 هـ/ 10م على جلب أمّهات الكتب االعلميّة والفلسفيّة من أماكن متعددة، وخاصّة من بغداد والقسطنطينية. فتكونت في بلاط قرطبة مكتبة من أثرى المكتبات في كامل أروبا. ولم تكن هذه المكتبة وغيرها من المكتبات الخاصّة والعامّة حكرا على المسلمين، فقد كان لليهود والمستعربين من نصارى الأندلس الحقّ في الاستفادة منها[1]. فظهر علماء كبار من الطراز الأوّل كأبي القاسم مسلمة بن أحمد المجريطي الرياضي والطبيعي والفلكي[2]، والوزير اليهودي حسداي بن شبروت طبيب النّاصر[3]، وابن وافد المنجّم، وابن خميس الفلكي.

ولا شكّ أن قيام الفتنة الكبرى بقرطبة في نهاية القرن 4 هـ/ 10م وبداية 5 هـ/ 11م ساهم بدور كبير في انتقال جزء من مكتبة الحكم إلى مدينة طليطلة، به علوم كانت شبه ممنوعة بقرطبة.

وإذا أضفنا إلى هذه العوامل من كان يفد على الأندلس من طلاّب العلم من نصارى أروبا لينهلوا من المعارف العربية، ثم يعودون إلى بلدانهم، اتضح لنا نسبيًا المسار الذي اتبعته المؤلّفات العربيّة من أرض الإسلام إلى أرض النّصارى، فدخلت أديرة أروبا بصفة عامّة وأديرة شمال إسبانيا وجنوب فرنسا بصفة خاصّة.

وفعلا لقد كان القرن 4 هـ/ 10م هو القرن الذي أصبحت فيه أروبا تنظر إلى العالم العربي

---

(1) كان هؤلاء العلماء من الأصناف الثلاثة يجمعهم عاملان : الإعجاب بالحضارة الإسلامية، والكتابة باللغة العربية، حتّى أنّ المؤرخ ألفارُو القرطبي اشتكي من أبناء قومه المتهافتين على قراءة الكتب العربيّة والرّاغبين عن قراءة الإنجيل، زيادة على جهلهم باللّغة اللاّتينيّة.

(2) ـ ولد بمجريط 338 هـ/ 950م ودرس بقرطبة، وهو الذي ترجم من اليونانية إلى العربيّة كتاب تسطيح بسط الكرة لبطليموس. وترجم هذا الكتاب إلى اللاّتينية. وضاع الأصل العربي وبقيت الترجمة اللاّتينيّة. وتوفي المجريطي سنة 398 هـ / 1007 م (الأعلام . 224/7. طبعة 5 بيروت 1980).

(3) ـ قام بمعيّة القسّ نيكلاس بمراجعة المادّة الطبّيّة لدسقوريدوس التي ترجمها ببغداد حنين بن إسحاق، وذلك بالاعتماد على مخطوط طلبه النّاصر خصّيصا من القسطنطينيّة.

الإسلامي نظرة إعجاب وخوف معا. وقد ولدت هذه النّظرة لهذا العالم رغبة في معرفة سرّ تطوره ونهضته. وكما وقع في بغداد القرن 2 هـ/ 8م والقرن 3 هـ / 9م من اندفاع العرب في مرحلة أولى إلى ترجمة الكتب العلميّة في الفكر اليوناني، قامت الأديرة في أروبا وخاصة في شمال إسبانيا المحتكّ احتكاكا مباشرا بالعرب وعلومهم بترجمة مؤلّفات العرب في الطبّ والرّياضيات والفلك. وكان لدير سَنْتَا مَارِيَا في ريبول من مقاطعة قتلانيا الإسبانية الدّور الفعّال في عملية النقل.«وإلى هذه الفترة تنتمي بعض النّصوص الخاصة بطريقة العرب في العمل الحسابي وبالأرقام الجديدة المدعوّة بحروف الغبار. وحفظت هذه النصوص ضمن أعمال المجموعة الطبيعيّة المشهورة»[4] ALBELDESE EMILINENSE

ولقد عاش الرّاهب جربرت[5] في هذا الدّير ـ وهو الرّاهب الذي أصبح، فيما بعد البابا سلفستر II (390 هـ / 999 م ـ 394 هـ / 1003 م) واستفاد من حركة الترجمة التّي قامت فيه، وساهم فيها بدور لا بأس به. بدليل أنّ تلامذته أنشأوا مدرسة لوران LORRAINE التي ينتسب إليها الراهب هرمان كونتراكتو (404 هـ / 1013م ـ 446 هـ / 1054م)[6]. HERMANN CONTRACTO.

وفي لوران ظهر كتابان في القرن 4 هـ / 10 م باللاتينيّة عن الأسطرلاب والتأثير العربي واضح فيهما.

لاشكّ أنّ هذه المرحلة من التّرجمة لم تكن منحصرة في هذين المكانين فقط، بل إنّ النّقل قد تمّ ببرشلونة[7] خاصّة وفي طرّزونة وسيجوفيا وليون ومولونا، كما أنّه ظهر أيضا من وراء جبال البيريني بطلوزه وأربونة ومرسيليا.

وبعد أن تحوّل النّظام في الأديرة البندكيّة، ظهرت النّواة الأولى للجامعات كمدرسة شارطر (وهذه ظهرت قبل جامعة باريس) الّتي لها صلة وثيقة بإسبانيا. فقد وفد كثير من طلبتها

---

(4) محمد سويسي : انتقال ص 5-4.

(5) تعلم بإسبانيا الفلك والحساب، وبقي ثلاث سنوات بقتلانيا (357 هـ / 967 م ـ 360 هـ / 970 م). وقام بوضع رسالة باللاّتينيّة في الأسطرلاب. وكان جربرت أستاذا قديرا في المنطق والأدب اللاّتينيين، ويهتم كذلك بالعلوم. وهو أوّل من أدخل الأرقام العربيّة إلى أروبا بما فيها الصّفر.

(6) ترك هذا الرّاهب حوليات تعرف بـ : CHRONIK VON HER MANN CONTRACTUS.

(7) أقدم الترجمات ببرشلونة ترجع إلى أواسط القرن 4 هـ / 10 م، وتمثلت في ترجمة كتب ثلاثة في «عمل الأسطرلاب». وترجم لُبِتُوس كتابا في الفلك بأمر من جربرت.

على مناطق نهر الأبر، وساهموا في نقل الكتب العربيّة إلى اللاّتينيّة من بينهم اليهودي إبراهيم البرشلوني وموشي السّفردي الذي اعتنق المسيحيّة، وعرف ببدرو ألفونسو الهوسكي.

وكان لهذه الحركة في ق 4 هـ / 10 م تأثيرها في ق 5 هـ / 11 م، إذ ظهرت كتب في الفلك والرّياضيّات مصادرها المادة العربيّة المترجمة. فقد كتب هرمان كتابا عن الأسطرلاب وكتابا في الموسيقى على غرار الكندي. وكتب فرانكو دي لياج FRANCO DE LIEGE في النّصف الثاني من القرن 5 هـ / 11 م كتابا عن الأسطرلاب. وكان قد ظهرت في لياج LIEGE قبل ذلك سنة 416 هـ / 1025 م و417 هـ / 1026 م كتب في نفس الموضوع.

ولقد أثمرت كلّ هذه الجهود الإسلامية والنّصرانيّة واليهوديّة في أماكن متعدّدة من إسبانيا خلال القرنين 4 هـ / 10 م و 5 هـ / 11 م، مدرسة التّرجمة بطليطلة. فهذه المدرسة تمثل ـ كما هو ملاحظ ـ الذروة في حركة علميّة قامت قبل أن تبدأ هي نشاطها بقرنين.

مدرسة التّرجمة في طليطلة :

كانت طليطلة عاصمة المملكة القوطيّة، وكانت من أجلّ المدن قرا وأعظمها خطرا في عهدهم. ثمّ أصبحت بعد الفتح الإسلامي لها سنة 97 هـ / 715م من أهمّ القواعد الأندلسيّة، وكانت من أمنع مدن العصور الوسطى لموقعها الجبلي الوعر وأسوارها الضخمة وقلاعها الحصينة. وهي تقع في منعطف نهر التّاجه.

أصبحت طليطلة عاصمة لإحدى دول الطوائف في القرن 5 هـ / 11م، وهي دولة بني ذي النّون. وفي صفر سنة 487 هـ / 1085 م تمكّن ألفونسو السادس ملك قشتالة من الاستيلاء عليها صلحا من يد القادر بالله يحيى بن ذي النون.

ومنذ ذلك التاريخ أصبحت هذه المدينة الكبرى عاصمة لقشتالة. لكن سكّانها ـ نظرا إلى ما أبداه ألفونسو السادس من تسامح ـ كانوا خليطا من النّصارى الإسبان، والعرب المسلمين الذين حافظوا على دينهم أو تنصّر بعضهم، واليهود.

وبعد حوالي نصف قرن من سقوط طليطلة في يد الإسبان، تولّى رئاسة أسقفيّتها الرّاهب ريموند ، وذلك سنة 519 هـ / 1125 م (على الأرجح)، وبقي إلى سنة 547 هـ / 1152 م (على الأرجح). ومنذ أن تولّى ريموند منصبه الدّيني بالمدينة، بدأت المرحلة الأولى في تأسيس مدرسة

التّرجمة بطليطلة. فقد عمد هذا الأسقف إلى يهودي اعتنق المسيحيّة، وهو يحيى الإشبيلي (ابن دريد)، وإلى رئيس الشّمامسة[8] دومنقو قنديسلفي DOMINGO GONDISALVI وكلّفهما بنقل الكتب العربيّة في الرّياضيّات والفلك والتّنجيم والفلسفة. وكان يحيى - وهو يحسن العربيّة والقشتاليّة - ينقل من العربية إلى القشتالية، ويقوم قنديسلفي بالترجمة من القشتالية إلى اللاّتينية. ويسعى في نفس الوقت إلى التّوفيق بين المضمون وبين المعتقدات المسيحية.

وفي هذه المرحلة الأولى من تأسيس مدرسة التّرجمة بطليطلة، ظهرت الترجمات الأولى التي أطلق عليها المختصّون اسم (الترجمات الطليطليّة الأولى. وهي التّرجمات التي قام بها اليهودي ابن داود المعروف بيحيى الإشبيلي.

وتبدأ المرحلة الثّانية لمدرسة الترجمة بطليطلة بمجيء الإيطالي جيرارد الكريموني (583 هـ / 1187 م) إلى طليطلة. ويعتبر جيرارد هذا من أشهر المترجمين في هذه المدرسة، فقد ترجم حوالي سبعين كتابا ترجمة موفّقة. من أشهرها كتاب التّصريف لأبي القاسم الزّهراوي، والقانون لابن سينا، والمنصوري للرّازي. ونال ابن سينا من خلال هذه الترجمات - وغيرها التي تمت في هذه الفترة - شهرة حتى كادت أوربا تعرف مذهبا فكريّا وفلسفيّا يحمل اسم ابن سينا. L'AVICENNISME.

وقام جيرارد مع ألفريد مورلي ALFRED MORLY بترجمة رسائل متعدّدة للكندي والفارابي.

ويبدو - نظرا إلى ضخامة العمل الذي قام به جيرارد - أنّ التّرجمات المنسوبة إليه لم يقم بها كلّها، وإنّما كان على رأس مجموعة من المترجمين يعملون تحت إشرافه ورعايته. وكثير من هؤلاء المساعدين له كانوا من أصل عربي أو من المستعربين. ويتّضح ذلك من أسماء بعضهم، فأحدهم كان يعرف باسم غلّيبوس Gallipus وهو تحريف لاسم غالب.

وبذلك تكون مدرسة طليطلة في مرحلتها الثّانية قد فتحت الباب على مصراعيه أمام أوربا لتنهل من العلم العربي، وتبدأ نهضتها الحديثة.

ومهما كان دور مدرسة طليطلة كبيرا، فإنّ موضوعيّة البحث العلمي تفرض علينا الإشارة إلى بعض المراكز الأخرى بإسبانيا ساهمت بدور لا بأس به في عمليّة النّقل هذه. ففي القرن 6 هـ /

(8) مفردها الشمّاس من السّريانيّة ومعناه خادم الكنيسة.

12 م وقبل أن يقوم ابن داود وقنديسلفي بأعمالهما ، ترجم هوقس دي سنتلاً HUGUES DE SANTALLA كتبا علميّة لأسقف طرّزونة (9).

وفي الفترة نفسها وفي المنطقة ذاتها ، ظهر عالمان من وراء جبال البيريني هما هرمان دي دلماتي HERMANN DE LALMATIE والإنقليزي روبرت أوف كتون ROBERT DE KET- TON (10)، ترجما معا كتبا في الفلك وأحوال الجوّ إلى أن غيّر اتّجاههما الأسقف بيار لفنرابل L'ABBE, Pierre le Vénérable إلى العلوم الدّينيـة. وبيار هذا (487 هـ / 1094 م - 551 هـ / 1156 م) جاء إلى إسبانيا في مهمّة رسميّة سنة 536 هـ / 1141 م للتوفيق بين ألفونسو السّابع ملك قشتالة وألفونسو الأوّل ملك أراغون.

وقام بإقناع العالمين السابقين بترجمة القرآن، وأغراهما بالمال. فأكملا هذه التّرجمة سنة 538 هـ / 1143 م. وانطلاقا من هذه الترجمة بدأ ما عرف بالجدل الدّيني والدّفاع عن العقائد المسيحية ضدّ الإسلام وتعاليمه. وتزعّم هذه الحركة بيار دي بواتيه Pierre de Poitiers.

والصّورة الّتي انطبعت في الذّهن الأروبي بعد ترجمة القرآن هذه، وصدور مؤلف بيار لفنرابل (مختصر تعاليم محمّد) : هو أنّ القرآن ما هو إلاّ تحريف للكتاب المقدّس، والإسلام هو أفظع فرقة من الفرق الضّالة، فهو دين الخرافات والأكاذيب، ودين العنف والسّيف، ودين فاسد. وما محمّد إلاّ صورة مضادة للمسيح.

ولولا وقوف ريمون بطليطلة أمام هذا التيّار الجارف، لنفرت أروبا من كلّ ما ينسب إلى العرب، وبالتالي تحرم من خلاصة الفكر الإنساني الذي قدّم إليها عن طريق العرب في طبق من ذهب. ولا شكّ أنّ التحليل العلمي للقرآن، والموضوعي نسبيا ، الذي قام به القسّ الدّمينيكي ريكولدو دي منتي كروس (ت 719 هـ / 1320 م)، بعد أن تشبّع بروح الحضارة العربيّة الإسلاميّة مدّة إقامته ببغداد من 679 هـ / 1280 م - 700 هـ / 1300 م، قد ساهم في التّنقيص من حدّة الحملات المغرضة على النّبي (صلى الله عليه وسلّم) ودينه في القرون المواليّة للقرن 6 هـ 12م.

ومن هذه المراكز الّتي ساهمت بدورها في حركة النّقل نجد برشلونة : فقد قام بلاتون دي تفولي PLATON DE TIVOLI بالتعاون مع اليهودي إبراهم بارحيّ ABRAHAM BAR

(9) مدينة صغيرة في غربي سرقسطة.

(10) أصبح فيما بعد - أسقف بمبلونة Pamplune .

HIYYA بترجمة كتب في الهندسة و الفلك، وهي مؤلّفات كانت بالعربيّة، وكان بعضها بالعبريّة(11).

وما ان يحلّ القرن 7 هـ / 13 م حتّى نصل إلى المرحلة الثالثة من مراحل مدرسة التّرجمة بطليطلة، وقد أصبح لها تقاليد عريقة منذ القرن 6 هـ / 12 م. فقد مرّ بطليطلة سنة 614 هـ / 1217 م ميشال سكوت (ت. 634 هـ 1236 م) وسيقوم خارج طليطلة بترجمة كتب أرسطو وشروح ابن رشد عليها.

ويستمر النقل في ق 7 هـ / 13 م على يد أمثال ماركوس Marcos وميخائيل اسكوتو Miguel Escoto إلى أن يأتي عهد ألفونسو الحكيم (650 هـ / 1252 م - 683 هـ / 1284 م) Alfonso El Sabio الذي شجّع على الترجمات العلميّة والتاريخية وأنشأ مؤسسات للتعليم العالي.

وبنهاية القرن 7 هـ / 13 م سوف لن تنتهِ حركة التّرجمة والنّقل بطليطلة، ولكن ظهرت مراكز أخرى في مثل نشاطها أو أقوى، حتّى بدا لبعض المؤرخين أنّ هذه الحركة انتهت بهذه المدينة، ولكن الأمور نسبية فقط. فحركة الترجمة التي ازدهرت في طليطلة ستنتقل إلى مراكز جديدة كمونبيليي Montpellier وباريس وشارطر Chartres وتولوز Toulouse ورايمس Reims. وظهر مترجمون في المراكز الأنجلوساكسونيّة كأدلار أوف باث Adelard of Bath وروبرتوس كتننسيس Robertus Ketenensis وألفريدوس أنجلكوس Alfredus Angelcus ودانيال أوف مورلي Daniel of Morly وبتروس ألفونسي Pétrus Alfonsi.

وفي هذه المراكز تنوّعت الترجمات، فلم تعد فقط إلى اللّغة اللاّتينية، بل أصبحت كذلك إلى اللغة العبريّة والرّومانيّة. كما أنّ المترجمين من العلماء بدؤوا في تأليف كتب في نفس مواضيع الكتب المترجمة بالتقليد والتّلخيص تارة أو بالشّرح والانتحال أحيانا.

التّعريف بأشهر المترجمين بإسبانيا وخاصّة بطليطلة.

1 ـ أديلار Adelard : راهب انقليزي بندكتي من مدينة باث على نهر الآفن. ذاع صيته

---

(11) في بداية ق 6 / 12 م بدأت حركة ترجمة كبيرة بإسبانيا قامت بترجمة الكتب العربيّة إلى العبريّة، وبدأ بعض العلماء اليهود يؤلّفون بالعبريّة في مرحلة ثانية. ومن أشهر هؤلاء ابن عزرا المعروف بإبراهم جودياس Abrahma Judaeus ت 563 هـ / 1167 م.

سنة 509 هـ / 1115 م، ولقب بالفيلسوف الإنقليزي. من الكتب التي نقلها إلى اللاّتينية نجد: أصول إقليدس سنة 525 هـ / 1130م، وكتاب الخوارزمي في الحساب. وقد أصبحا من المراجع الأساسية للرياضيات بأروبّا.

2 ـ هوجودي سنكتلاّ أو سنكتالنسيس Hugo de Sanctalla ou Sanctallensis مترجم عاش في النصف الأول من القرن 6 هـ / 12م. كان ينقل من العربيّة إلى اللاّتينيّة بطلب من القسّ ميخائيل التّرزوني Michael de Tarazona . وكان هو نفسه قسّا بهذه المدينة من 513 هـ / 1119م إلى 546 هـ / 1151م. وكان مولعا بنقل الكتب العربية قبل عمل ريموند رئيس قساوسة طليطلة. وقد أهداه هوجو كل ما نقله من الكتب العربيّة إلي اللاّتينية، ومنها: كتاب المواليد الكبير لما شاء الله Liber de Nativitalibus، وشرح ابن المثنى على زيج الخوارزمي، وكتاب لأبي معشر في التكهنّات للأحوال الجويّة.

ومن المرجح تاريخيا أن هذا الناقل الكبير كان يعمل ضمن مجموعة من المترجمين بالشمال الشرقي، وكانت عاصمته سرقطة التي سقطت بيد الإسبان في بداية القرن 6 هـ / 12م. وقد سبقت هذه المجموعة مدرسة طليطلة. وكان مع هوجو أفلاطون طبرتينوس من برشلونة Pla-to Tiburtinus وأوّل ما نقل هذا المترجم إلى اللاتينية كتاب الهندسة التّطبيقية عن العبريّة، واهتم خاصّة بكتب التّنجيم، ومنها كتاب علم النّجوم للبتّاني الذي تمّ عن طريقة دخول استعمال حساب المثلّثات ومفهوم الجيب إلى أروبّا. كما نقل كتاب الكريات لتيودوس، وكتاب التنجيم ليحيى بن علي بمشاركة أبراهم برحيّا.

3 ـ أبراهيم بن عزرا Abrahma Ibn Ezra: ناقل شهير ولد بطليطلة 491 هـ / 1097م وتوفي بروما 555 هـ / 1160م. ترجم قبل وفاته إلى العبريّة شرح أحمد بن المثنّى بن عبد الكريم على زيج محمد بن موسى الخوارزمي، واستخدم هذه الترجمة في عمله باللاّتينية.

4 ـ جيرارد الكريموني (508 هـ / 1114م ـ 583 هـ / 1187م):ولد بمدينة كريمونا بلمبرديا المقاطعة الإيطالية، درس الفلسفة ورحل إلى طليطلة حيث تعلّم العربيّة. ترجم عدّة كتب في الطب والفلسفة والفلك عن الأصول العربيّة منها : كتاب السّماع الطبيعي لأرسطو De Auditu Naturali ، وكتاب القانون لابن سينا Liber Canonis Primus quiem Princeps : وهو أكبر تأليف وأشمله في الطبّ عند العرب. وكتاب الأسطقسات، وكتاب السيول لإسحاق بن سليمان الإسرائيلي، وكتاب الأحداث الجوية لأرسطو نقلا عن ابن سينا ، وكتاب المنصوري للرّازي، ومقالة

في الجدري والحصبة للرّازي، والقسم الجراحي من كتاب التّعريف لأبي القاسم الزهراوي، والقول في الشكل القطاع والنسبة المؤلّفة لثابت بن قرة، وزيج الزرقالي، ومعرفة الأشكال البسيطة الكريّة لبني موسى بن شاكر، والمدخل إلى الطبّ للرّازي.

5 ـ يوحنا الإشبيلي (ابن دريد) Jean de Seville (Aben Dreath): يهودي اعتنق المسيحية، وخدم كبير أساقفة طليطلة ريموندو Raimondo (525 هـ / 1130م ـ 545 هـ / 1150م). اهتم بالكتب العربية في الفلسفة والرّياضيات، ونقلها إلى القشتالية، ثمّ نقلها دمنقو ڤنديسلفو إلى اللاّتينيّة. من كتبه Liber Algorismi: وهو من أقدم المصنفات في الحساب المستعملة للأرقام العربيّة وللصّفر. يشتمل هذا الكتاب على معظم ما جاء في كتاب الخوارزمي وخاصّة طريقته في استخراج الجذر التّربيعي بواسطة الكسور العشريّة وقد عرضها فيما بعد غاردن GARDAN معتبرا إيّاها طريقة حديثة. ونقل أيضا كتاب مقاصد الفلاسفة للغزالي Metafisica Algazelis وكتاب الشّفاء لابن سينا Metaphisica Avicenna وكتاب السّماء والعالم لابن سينا Decelo et Mundo ab Avicenna وكتاب الفرق بين النّفس والروح لقسطا بن لوقا وأهداه إلى ريموند، ورسالة العمل بالأسطرلاب لابن الصفّارت 452 هـ / 1070م وكُتب عبد العزيز القابسي في التنجيم، وكتاب الفرغاني.

6 ـ دمنقو ڤنديسلفي Domingo Gondisalvi : كان يتعقّب ترجمات يحيى الإشبيلي إلى القشتالية، ويحوّلها إلى اللاّتينية. له كتاب De Ortu scientiarum مقتبس من كتاب إحصاء العلوم للفرابي وكان لهذا الكتاب تأثير كبير في أوربّا. وترجم كتاب النفس وكتاب الطبيعيات لابن سينا. وأغلب إنتاجه في ميدان النقل تمّ بين عامي 525 هـ / 1130 م و 566 هـ / 1170 م.

7 ـ ميخائيل سكوت من أشهر النّقلة. ترجم كتاب البتروجي عن الحركة السّماويّة، وأتمه بطليطلة مع الكاهن اليهودي أبي داود. انتقل سكوت إلى إيطاليا فيما بين 625 هـ / 1227 م و628 هـ / 1230 م، واعتنى بشروح ابن رشد على أرسطو فترجمها. ثم دخل جامعة باريس حيث ساهم في إنشاء النزعة المنتمية إلى ابن رشد التي عوّضت النزعة المنتمية إلى ابن سينا السائدة سابقا في العالم اللاّتيني.

8 ـ هرمن الدّلمسي hermann le Dalmatie من المترجمين في القرن 7 هـ / 13 م، توفي 671 هـ / 1272 م. اهتم خاصّة بالفلسفة والأدب، واستعان بعناصر من أصل عربي في التّرجمة.

نقل الشّرح الأوسط لابن رشد على كتاب الأخلاق لأرسطو بطليطلة سنة 638 هـ / 1240 م. ونقل رسالة لابن باجة السّرقسطي.

9 ـ ألفراد دي سرشال Alfred de Sareshel إنقليـزي من نقلة الثلث الأوّل من ق 7 هـ / 13 م. ترجم إلى اللاّتينيـة كتاب النّبات لأرسطو نص حنين بن إسحاق وإصلاح ثابت بن قرة، وعن هذه الترجمة أعيد نقله إلى اليونانيّة. كما نقل كتاب المعادن لابن سينا.

طرق التّرجمة في مدرسة طليطلة :

يلاحظ الدّارس لمدرسة التّرجمة بطليطلة عدّة طرق في نقل النّصوص :

1 ـ التّرجمة من الإغريقيـة : لا شكّ أن المكتبة العربيّة التي ازدهرت في بلاد الأندلس، كانت تشمل عدّة مصنفات إغريقيّة، عمل حكّام العرب على جلبها من مراكز مختلفة بأوربا. وقد عمد المترجمون إلى نقل هذه الكتب إلى اللاّتينية. وكانت عمليّة التّرجمة تتمّ على النحو التّالي : يقرأ المخطوط قارئ متخصص في قراءة النّصوص القديمة، ويستمع إلى القارئ مترجم يحسن الإغريقية فيقوم بترجمتها شفاهيًا، ويتولّى كاتبٌ تسجيل التّرجمة. وإمكانيّة دخول الخطأ والتحريف إلى هذه التّرجمة متأتٍ من قارئ المخطوط، أو من السّامع المترجم، أو من السامع الكاتب، أو منهم جميعا.

2 ـ الطريقة المزدوجة : وهذه تهمّنا مباشرة لأنّ النّصوص العربيّة في جملتها نقلت إلى اللاّتينيّة في مدرسة طليطلة بهذه الطريقة. وهي تقوم على اشتراك شخصين في عمليّة التّرجمة. فالأوّل ـ ولاشكّ أنه يتقن العربيّة ـ يتولّى نقل النصّ العربي إلى القشتاليّة، (وهي لغة شفوية في ذلك الوقت وليست مكتوبة)[12]. ويقوم الشخص الثاني بالنّقل من القشتالية إلى اللاّتينيّة.

وهذه الطريقة هي التي اتّبعها يحيى الإشبيلي (ابن داود) وقنديسلفي. فالأوّل كان يحسن العربيّة ويعرف الرّومانسيّة (القشتاليّة)، وكان الثاني يعرف اللّغتين الرّومانسيّة واللاّتينيّة، فكانت التّرجمة تتمّ على النّحو التالي : عربيّة ـ قشتاليّة ـ لاتينيّة.

وهذه الطريقة هي التي اتبعها المترجمون في القرن 13/7 في طليطلة. فميشال سكوت

---

(12) لهذا لا فائدة في التفتيش عن النصّ الوسيط أي النصّ القشتالي.

Michel Scott سواء ترجم بطليطلة أو خارجها كان متأثرا بهذه الطريقة، وخاصّة في ترجمته لمؤلّفات ابن رشد، فقد استعان بعلماء يهود يعرفون العربيّة. لأنّه كان يجهلها. وسار على نفس المنوال الألماني هرمان ت 671 هـ / 1272 م فقد كان يترجم إلى اللاّتينيّة مستعينا بوسيط يتقن العربيّة التي كان يجهلها. واتّبع نفس الطريقة مترجمو برقس Burgos.

3 ـ الطريقة المباشرة : وهي طريقة الناقل الشّهير جيرارد دي كريمون فقد كان ينقل مباشرة من العربيّة إلى اللاّتينيّة، ولهذا كانت أغلب مترجماته موفّقة نسبيّا. وقد قام بإعادة بعض ترجمات ابن داود ـ قنديسلفي لاعتقاده بوجود بعض السّلبيات في ترجمة الثّنائي، ولأنّه كان يميل إلى إزالة الوسيط وهو اللّغة القشتاليّة الشفويّة. وكان جيرارد ينقل في بعض الأحيان وأمامه الترجمة العربيّة عن الأصول السّريانيّة مع النّصّ اليوناني الأمّ.

وممّا امتازت به كلّ هذه التّرجمات تقيّدها في الجملة بالنصّ العربيّ أسلوبا وتركيبا. وإذا عدم المصطلح الفنّي أخذ المصطلح العربي. وعلى سبيل المثال فإنّ مصطلح المعيّن ترجم بـ Hel-muhayn ، وبنات نعش بـ Bénénaz، و أوج بـ Opogeo ، والمدارات بـ Almudarat ، والزّيج Ezeig الخ...

لكن هذه الترجمة الحرفية كان لها مَسَاوِئُهَا، فعندما يعجز المترجم عن فهم لفظ فإنّه ينقل الكلمة كيفما اتّفق تاركا مسؤوليّة حل الغموض للقارئ. والأخطر من ذلك هو حذف بعض الفقرات فتقع الأخطاء الّتي لا تقبل من النّاحية العلميّة. وعلى سبيل المثال نذكر مقاصد الغزالي، فقد نشر في الترجمة اللاّتينية دون مقدمة المؤلف فَعَدّ اللاّتين تلك الأفكار الّتي أراد الغزال انتقادها آراءه الخاصّة.

ومن المعلوم أن بعض هذه الترجمات وقعت من العربيّة إلى العبريّة ومنها إلى اللاّتينيّة. وقد عمد بعض المترجمين اليهود إلى تعويض الآيات القرآنيّة في النصّ العربي بآيات توراتيّة في النصّ المترجم، وعوّضوا أحاديث الرسول (صلى الله عليه وسلّم) بأقوال مأخوذة من التّلمود، واسم الجلالة أو النبيّ عوّض باسم موسى أو ببعض الحكماء. وأسماء الصحابة عوّضت بأسماء من التاريخ اليهودي. والأمثلة على ذلك كثيرة كما هو الحال في ترجمة تهافت التهافت لابن رشد، وميزان العمل والقسطاس المستقيم للغزالي.

لقد خدم اليهود الفكر العربي الإسلامي بما قاموا به من ترجمات من العربيّة إلى العبريّة

في مرحلة أولى، وما وضعوه من تآليف في مرحلة ثانيّة فحفظوا بذلك كثيرا من الأصول العربيّة. وانفردوا بترجمة الكتب الأدبية واللّغوية ـ وقد أهملت ترجمتها في مدرسة طليطلة وغيرها من مراكز الترجمة ـ وذلك لقرب لغتهم من اللّغة العربية.

لكنّ التصرف في الترجمة الذي قام به بعضهم كان بعيدا كلّ البعد عن الموضوعيّة العلميّة. فقد جعل بعض المؤرخين المتسرّعين من أوروبا يحكمون ـ من خلال هذه الترجمات ـ على الفلسفة الإسلامية حكما قاسيا. فهي في نظرهم شوّهت الفكر اليوناني ولم تفهمه. والحقيقة هي أنّ الترجمة كانت دون المستوى المطلوب من حيث الأمانة العلميّة. وهنا تقع المسؤوليّة على عاتق الباحثين العرب للغربلة والتصحيح، ولكن هذا المجهود وإن بذل يبقى دون جدوى إذا لم يتحصّل الباحث النّزيه على الأصل العربي.

حركة التّرجمة بين الشرق والغرب.

رغم بعد المسافة بين بغداد وطليطلة، فإنّ هناك كثيرا من نقط الاتفاق بين بيت الحكمة في عاصمة العباسيّين ومدرسة الترجمة بعاصمة قشتالة. فقد عمد العرب ببغداد والغربيون بطليطلة إلى ترجمة الكتب العلميّة بالدرجة الأولى. وكما تدعمت حركة الترجمة ببغداد بظهور مراكز أخرى في عواصم المشرق العربي وبلاد فارس، تدعّمت حركة الترجمة في طليطلة ببروز مراكز أخرى بداية من القرن 7 هـ / 13 م، وخاصّة بلارمو Palermo الّتي أخذت المشعل عن مركز سلارنو Salerno . ولئن وجدت نقط اتفاق، فإنّ هناك نقط اختلاف بين بيت الحكمة ومدرسة طليطلة : النقل في بغداد كان لعلوم أعرض عنها أهلها، بينما في طليطلة كان النقل في فترة ازدهرت الحضارة العربيّة فيها. وكان منطلق الترجمة في بغداد رسميا علميا بينما كان في طليطلة منطلقه دينيا فرديّا.

ومهما كان هذا الاختلاف بارزا، فلا يمكن أن نغفل أنّ في بغداد وفي طليطلة معا نقلت عصارة الفكر الإنساني من لغة إلى لغة أخرى. وقد تضامن للقيام بهذا العمل الشريف أصحاب الدّيانات الثلاث : المسلمون، واليهود، والنّصارى وفي ذلك أكثر من معنى.

الخـــاتمـــة :

إنّ التـأريخ لمدرسـة طليطلة في التّرجـمة هو مسـاهمـة لإبراز نصيب الحضـارة العربيّـة الإسلاميّة في التّراث العلمي المشترك للإنسانيّة جمعاء. كما يهدف أيضا إلى إلى إصلاح كثير من الأخطاء ارتكبت عن قصد أو عن غير قصد في حق المجهود الجبّار الذي قام به العرب طيلة حوالي ستّة قرون. ومن هذه الأخطاء ما يدلّ على جهل كبير : فهناك في أوربا ما بين القرن 7 هـ / 13 م والقرن 9 هـ / 15 م. من يعتقد أنّ أرسطو إسباني، وأنّ ابن سينا هو ملك قرطبة.

وأخطر هذه الأخطاء في حقّ تاريخ العلوم هو السّطو على مجهودات الغير، بأن يقوم المترجم بنسبة الكتاب إليه أو لغيره من علماء ملّته. وقسطنطين الإفريقي ـ على جلالته ـ مشهور بهذه النّقيصة. ونجد كذلك ميشال سكوت يؤلف كتابا بعنوان: Quaestiones جمع فيه آراء البطروجي وابن رشد، وينسبه إلى نيكولاوس دامسنوس شارح أرسطو في القرن 1 م. ومن المؤسف أن استمر هذا الخطأ إلى اليوم. كما أنّ كتاب الأحجار لابن سينا نسبوه إلى أرسطو. ونسبوا كتاب العين لحنين بن إسحاق إلى جالينوس وكتاب الماليخوليا لإسحاق بن عمران إلى روفوس الخ...

وهذا ما جعل ابن عبدون الأندلسي يحذّر من بيع الكتب العلميّة للنّصارى واليهود، لأنّهم ـ في نظر هذا المحتسب ـ سيترجمونها وينسبونها إلى علماء ملّتهم.

ومن الأخطاء الّتي يجب إصلاحها وخاصة في الموسوعات العلميّة المنتشرة اليوم، هو إعادة نسبة الاكتشافات العلميّة إلى أصحابها الحقيقيّين. فكثير من هذه الاكتشافات في الطبّ والفلك والمناظر وعلم المثلّثات تنسب خطأ إلى علماء من أروبا، بينما المكتشف الحقيقي لها هو عربي عاش قبل الأروبي بعدّة قرون.

ولئن غمط هذا الانتحال وتلك الأخطاء حقّ بعض العلماء المسلمين في تبوّء المكانة المرموقة التي يستحقونها عن جدارة في تاريخ العلوم، فإن هناك حقيقة لا يشك فيها إلاّ حاقد أو متعصّب هي أن هذه الترجمات قدمت للغرب، زيادة على المادة العلميّة، منهجية البحث العلمي كما رسمه وضبطه وطبّقه العلماء المسلمون، فوصلوا إلى نتائج أبهرت أروبا في القرون الوسطى. إنّ المسلمين مهدوا لأروبا الطريق الموصل ومكّنوها من الوسيلة النّاجعة والأداة الطيّعة بضبط منهجيّة علميّة : قوامها العقل الجامح بطموحه، والضّمير الكابح بإنسانيّته.

المراجع العربية :

مرتّبه حسب أهميتها لهذا البحث.

1 ـ د. محمد سويسي : انتقال العلوم العربية والحضارة الإسلامية إلى الغرب بيت الحكمة ـ تونس 1985.

2 ـ أحمد شحلان : دور اللّغة العبريّة في النّقل بين الثقافتين العربيّة واللاّتينية (ندوات أكاديمية المملكة العربية المغربية) ـ أكادير سفر 12 نوفمبر 1985. ص ص 284-257.

3 ـ فؤاد سزكين : نقل الفكر العربي إلى أروبا اللاّتينيّة (المرجع السّابق ص ص 297-285).

4 ـ توفيق الطّويل : في تراثنا العربي الإسلامي ـ مجلّة (عالم المعرفة عدد 87 مارس 1985. مطبعة الرّسالة ـ الكويت 253 ص).

5 ـ زكريّا هاشم زكريّا : فضل الحضارة الإسلاميّة والعربية على العالم ـ دار نهضة مصر للطبع والنشر. الفجّالة القاهرة 1970.

6 ـ محمود الصّغيري : قضايا في التراث العلمي العربي ـ مطبعة الكاتب العربي ـ دمشق 1981.

BIBLIOGRAPHIE

1) Alonso Alonso E: traductiones del arabe al Latin por Juan Hispano (Ibn Dawud).
Andalus, V.17 (1952) pp 128-152.

2) Burnette C.S.F.: A group of arabic - latin translators working in northern Spain in the mid - 12th century.
Journal of the Royal Asiatic Society, n. 1/1977 : pp 62-108.

3) Ferre Dolores : traducciones al Hebreo de obras médicas en los siglos XIII Y XIV.
Mixelanea de Estudios arabes y Hebraicos : vol XXXIII fax 2 1984: pp 61-74.

4) Golner Carol: les premières traductions de l'arabe au latin. ST - Act. or, III 1962, pp. 139-152.

5) Harvey L. p : the Alfonsine school of translators : translations From Arabic into castilan produced under the patronage of Alfonso the wise of castille. (1221-1252-1284) Journal of the Royal Asiatic Society ; n. 1/1977 pp: 109-117.

6) Hourani George: the medieval translations from arabic to latin made in Spain. M.W., LXII/2 (Avril 1972) pp. 97-114.

7) Les traducteurs chrétiens et la science arabe de recherches d'islamologie par I.

Madkour. Louvain, ed. Peters, 1977, pp: 201-206.
8) Tomiche Nada: la littérature arabe traduite, mythes et réalités, Paris: Geuthner 1978, 74 p.
9) Van Riet S. traductions arabo-latines et informatiques, Bruxelles correspondance d'Orient n. 11/1970 : pp. 473-488.
10) Vernet Juan: ce que la culture doit aux arabes d'Espagne. pub. Sindabad, Paris 1985: 455 p.
11) Vernet Juan: les traductions scientifiques dans l'Espagne du Xe siècle. (les C.T. XVIII, n. 69-70 (1970 - 1ere et 2 eme trimestre. pp: 47-60).
12) Vernet Juan : la cultura hispano- arabe en oriente y occidente Barcelona, Ariel 1978, 391 p.
13) Vetsch Brigitte: les centres de traductions dans (les arabes et l'occident).
Labor et fioles. pub. orientalistes de France, Paris 1982 pp: 123-129.
14) watt W. Montgomery : l'influence de l'Islam sur l'Europe médievale.
R.E.I., XL/2 (1973), pp: 297-327.
XLI/I/ (1973), pp: 127-156.
15) Agreda Burillo Fermando: autores espagñoles traducidos al-arabe.
Cuadernos de la bib, Espagnola de Tetuan n. 23-24 (Juin-décembre 1981) : pp. 74.-55
16) J.M. Lillas-Vallicrosa : la corriente de traductiones scientificas de origine actual hasta fiurs del siglo XIII dans cah. d'histoire mondiale Vol. II, n. 2, 1954, pp:395-428.
17) Werrie p. : l'école des traductions de Tolède: Ecrits de Paris (Juillet - Août 1971), 296 p.
18) Terres Elams :le développement de la civilisation arabe à Tolède. C.T. XVIII 1er et 2eme trimestre pp: 73-86. 1970 -
19) Thery G: Tolède. grande ville de la renaissance médièvale. Oran Heintz 1944, p. 150
20) Alfonso Ganier : Tolèdo - school of translatore dans J. of Pakistan History Society vol. XIV/2 Avril 1966 pp: 85-92.